الجمهوريــة الجزائريـة الديمقراطيـة الشعبيـة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح – ورقلة

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

بنية التّشاكل و التّباين في كتاب البخلاء للجاحظ

مذكرة تخرج من متطلبات نيل شهادة الماستر في اللغـة و الأدب العـربـي

تخصص: أدب عربي قديم

من إعداد الطالبة:

– إيصال مفاتيح

إشراف الدكتورة:

– فائزة زيتوني

السنة الجامعية:

2019-2020م/1441-1442هـ

إهـــــــداء

- إلى من بسمتها غايتي و تحت أقدامها جنتي

و التي سعت لأجل راحتي و نجاحي

*** أمي الغالية ***

- إلى من أحمل إسمه بكل افتخار، من علمني العطاء

بدون إنتظار

*** أبي العزيز***

- إلى اللذين يزينون دنياي ،أخوايا

أمير الدين* و * مهدي.

- إلى ملاكي، قلبي، روحي التي نورت حياتي إبنتي

*** أنابيس ***

- إلى الذي أعيش في كوكبه، يهون همومي، و يبعث

أفراحي *** زوجي***

- إلى كل **عائلتي و أقاربي**.

- إليكم جميعا أهدي نجاحي هذا...

إيصال مفاتيح

شكـــر و عرفان

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ :

"مَنِ اصْطَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَجَازُوهُ ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ مُجَازَاتِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّكُمْ قَدْ شَكَرْتُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ".

- أحمد الله حمدا كثيرا و أثني عليه و أرفع شكري إليه بأن منَّ علي بالصبر و منحني القوة و الإرادة، و أعانني على إنجاز هذا العمل المتواضع.

- أتوجه بالشكر الجزيل و التقدير الكبير و العرفان بالجميل إلى أستاذتي الفاضلة الدكتورة **فائزة زيتوني** التي لم تبخل علي بتوجيهاتها و مجهوداتها المبذولة لإتمام هذا البحث.

- كما أتقدم بالشكر إلى كل أساتذتنا الكرام بقسم اللغة و الأدب العربي .

- و أشكر أيضا كل من مدَّ لي يد العون من قريب أو بعيد.

مقدمة

اختلفت النظريات النقدية و تعددت مناهجها في دراسة العمل السيميائي، حيث أحاطته بجملة من الإجراءات، و ظلت جاهدة للكشف عن خباياه، و تقييم جمالياته، فكانت من بينها الدراسات السيميائية المعتمدة على مجموعة آراء معرفية و إجراءات تطبيقية تتكئ على ركائز و معتقدات عديدة، تتيح لها الوقوف عند عتبات العمل الأدبي، و تمنحها فرصة الولوج إلى أعماقه و إظهار حلته و الظفر بمغزى دلالته، و إبراز أهدافه و غاياته، فغاية المنهج إذن البحث في إرهاصات تطفو فوق الشكل أو تغوص داخل المضمون.

لهذا على الناقد السيميائي التسلح بكل الآليات لاستنباط و استخراج تلك الإيحاءات بغية الكشف عن المستوى العميق الذي يهتم بدراسة التشاكل و استقراء القيم الدلالية و السيميولوجية، فقد تتشاكل أو تتباين العلامات و تشير إلى وظيفة ما قد نعلمها أو لا نعلمها.

و من بين الآليات التي تمثل أهم أدوات المقاربة السيميائية و الإجرائية **التشاكل والتباين**، فهذه الأخيرة (التشاكل و التباين) تعد أداة إجرائية تتجسد في العمل الأدبي، و تتميز بأهميتها بوصفها خاصية فنية تساهم في الإمساك بالمعنى الحقيقي للعمل الإبداعي و الكشف عن مكنوناته المضمرة و مدى إتساقها و انسجامها.

و يعود اختيارنا لهذا الموضوع إلى دوافع عديدة منها:

- الإسهام في إحياء التراث الأدبي من خلال آليات حديثة و قراءات جديدة.
- الرغبة في البحث في قصص البخلاء و الكشف عن بنيتها العميقة.

– قلة الدراسات التي تناولت آلية التشاكل و التباين في المجال السردي و خاصة القديم منه.

و على هذا جاءت دراستنا موسومة بـ : "**بنية التشاكل و التباين في كتاب البخلاء للجاحظ** " محاولين الإجابة على الإشكال الرئيس التالي:

كيف ظهرت بنى التشاكل و التباين في كتاب البخلاء للجاحظ ؟

و ينسل عن هذا الإشكال جملة من الأسئلة الفرعية نسردها كالآتي :

- **ما مفهوم التشاكل؟**
- **ما المقصود بالتباين؟**
- **و ما مرجعية كل منهما؟**
- **ماهي البنى المتشاكلة في كتاب البخلاء للجاحظ ؟**

و للإجابة عن هذه الأسئلة، و حتى نتمكن من الدراسة المنظمة للموضوع، ارتأينا أن تكون خطة البحث كما يلي:

افتتحتها بمقدمة ثم ألحقتها، بفصلين تليهما خاتمة و ملحق، حيث عرضت في الفصل الأول و الموسوم بـ: مفهوم التشاكل و التباين مفهوم التشاكل من الناحية اللغوية و الاصطلاحية بالإضافة إلى تحديد مرجعيته في الدراسات الغربية و العربية، كما حددنا ماهية التباين لغة و اصطلاحا.

و الفصل الثاني يعتبر فصلا تطبيقيا، تناولت فيه تجليات بنى التشاكل و التباين في كتاب البخلاء للجاحظ، و أهم السيمات السيميولوجية و الدلالية، و رصد أقطاب المربع السيميائي، و في الأخير أنهينا بحثنا هذا بخاتمة لجملة من النتائج التي توصلنا إليها من خلال الدراسة، يليها ملحق عن حياة الجاحظ .

و تدور هذه الدراسة طبعا في فلك المنهج السيميائي، إذ تعد دراسة التشاكل و التباين جزئية من جزئياته و آلية من آليات مقاربته للنصوص الأدبية.

و قد اتكأت هذه الدراسة بجملة من المصادر و المراجع منها: كتاب السيميولوجيا بين النظرية و التطبيق لجميل حمداوي، تحليل الخطاب الشعري(إستراتيجية التناص) لمحمد مفتاح، أما بالنسبة للصعوبات فلا يوجد أي بحث يخلو منها، ومن أبرز ما واجهت:

- صعوبة فهم لغة بعض النصوص في المدونة، التي كانت تحتاج إلى بذل المزيد من الجهد لتبسيطها و تذليلها.
- قلة الدراسات التي تناولت من قبل آلية التشاكل و التباين في المجال السردي.
- أن طبيعة الموضوع تقتضي مني الوقوف مطولا على الدراسة التطبيقية، و نظرا للتركيز على الجانب التطبيقي فقد انعكس ذلك سلبا على حجم قائمة المصادر و المراجع فيه.

و في الأخير لا يسعني إلا أن أحمد " **الله العلي القدير**" على كل ما وفقني إليه، ثم أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذة المشرفة **زيتوني فائزة** على ما خصتني به من إهتمام و متابعة

كل جزئيات البحث، و تحملها مشقة الإشراف، فأدعو لها العلي القدير أن يرفع من شأنها و يعز مقامها، و كذلك لا أنسى أن أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد.

إيصال مفاتيح

الفصل الأول:

مفهوم التشاكل و التباين

أولا: مفهوم التشاكل:

1- لـــغـــة

2- إصطلاحا

أ- مصطلح التشاكل في البلاغة العربية القديمة

ب- مصطلح التشاكل عند الغرب

- تصور "غريماس" (A.J.Greimas)

- تصور "باتريك شارودو/دومنبك منغنو"

جـ- مصطلح التشاكل عند العرب

- محمد مفتاح

- أنور المرتجي

- محمد القاضي

ثانيا: مفهوم التباين :

1- لـــغـــة

2- إصطلاحا

أ- عبد الملك مرتاض

ب- محمد مفتاح

أولا: مفهوم التشاكل:

1- لـــغـــة:

عُرِّف **التشاكل** بتعريفات لغوية عدّة منها:

- **في لسان العرب:** شَكَلَ:" الشَكْل بالفتح: الشَّبَهُ و المِثْلُ، و الجمع أَشْكالٌ و شُكُولْ، و المشاكلةُ: الموافقة و التشاكُلُ مثله، و الشَاكِلَةُ الناحية و الطريقة و الجَدِيلَةُ، و في التنزيل العزيز: **(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ٨٤)** (سورة الإسراء، آية 84.)، أي على طريقته و جديلتِه و مَذْهَبِه"[1].
- **و في قاموس المحيط لفيروز آبادي هو:**" شاكله: شابهه و ماثله و تشاكلا: تشابها و تماثلا ، **المشاكلة:** المماثلة، و عند أهل البديع أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته"[2].
- **و في مقاييس اللغة لابن فارس:** في باب الشين و الكاف و ما يمثلهما 'شكل' الشين و الكاف و اللام معظمهُ بابه المماثلة، تقول: "هذا شِكل هذا، أي مثله".[3]

و عليه فالملاحظ لهذه الدلالة المعجمية لمادة 'شكل' يجدها قد أجمعت على معنى: المشابهة و التماثل و التوافق و المصاحبة و الاشتراك في شيء واحد بين أمرين.

---

[1]– إبن منظور، لسان العرب ، تحقيق عامر أحمد حيدر ، راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد على بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان، الجزء11، ص 426.

[2]– الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ترجمة أبو الوفاء نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1971م، ط2، ص 491.

[3]– إبن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق و ضبط : عبد السلام محمد هارون، المجلد 3، دار الجبل، بيروت، ص 240 .

2- اصطلاحا: و بعد التطرق للإشارات المعجمية لمصطلح التشاكل، نذهب مباشرة لالتماس الحد الاصطلاحي له، فلا شك أن لكل مصطلح من المصطلحات مرجعيات و خلفيات لا بد من الرجوع إليها بغية الكشف عن أبعاده الدلالية و الاستفادة منها .

أ- مصطلح التشاكل في البلاغة العربية القديمة:

عُرِفَ **التشاكل** في بدايته بعدة مصطلحات منها: "**(المزاوجة)**، و **(التصدير)**، و **(ردّ الإعجاز على الصدور)**، و**(الترديد)**، و**(المماثلة)**، كما قصد بها البعض التناسب في النظم و التلاؤم في الألفاظ مع السياق."[1]

و "قد جعلها إبن طباطبا عنصرا من عناصر الخلق الفني، الذي يعتمد على المراجعة و التدبير، و وافقه في ذلك إبن الأثير و ابن سنان الخفاجي."[2]

أي أن إبن طباطبا جعل عنصر التشاكل من العناصر التي تزيد من جمال العمل الفني و ذلك من خلال إنسجام و توافق عناصره.

ينظر ابن رشيق للمشاكلة على أنها تكسب البيت الشعري تناغما بين أجزائه (صدره و عجزه).

ب- مصطلح التشاكل عند الغرب:

اختلفت تعاريف و تصورات مصطلح **التشاكل** عند الغرب، و سوف نأخذ تصور "**غريماص**" **(A.J.Greimas)** كنموذجا باعتباره المؤسس و الرائد لهذا الأخير:

---

[1]- ينظر: صالح لحلوحي، التشاكل و التباين في شعر مصطفى الغمازي، جامعة بسكرة (الجزائر)، العدد17، جانفي 2013، ص124.

[2] - المرجع نفسه، ص124.

- تصور "غريماص" (A.J.Greimas):

كم ذكرنا **فغريماص Greimas** هو أسبق من وضع مفهوما للتشاكل في الدراسات السيميائية السردية، في كتابه التنظيري: "**علم الدلالة البنيوي- La Sémantique Structurale** "، و عليه يعرف التشاكل بأنه: "مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية، كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل إبهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة."[1]

فالتشاكل من خلال هذا التعريف يعد جملة من المقومات المعجمية و السياقية التي تتوفر في الخطاب، و من ثمة يتحقق الإنسجام و الإتساق.

و عنده أيضا هو: "إستمرارية قاعدة سُلَّمية للمقومات السياقية التي تمكن، نتيجة إنفتاح المركبات الإستبدالية التي هي المقولات السياقية، من تحقيق تغييرات وإحداث التمظهر، و هي تغيرات، عوض أن تهدم التشاكل، لا تعمل إلا على تأكيده".[2]

"بمعنى أن العنصر الذي يتوقف عليه تحديد التشاكل هو تراكم المقومات السياقية التي يمكن أن تختلف، بشرط أن تكون متساوقة دلاليا مع قاعدة المقومات السياقية". [3]

فالهدف من هذه الدراسة عند غريماص "هو البحث عن الإنسجام الخطابي، و التأكد من صحة المقروئية، و خلق وحدة النص، إذ يقول: " كيف يمكن أن نفسر بأن

---

[1] - ينظر: جميل حمداوي، السيميولوجيا بين النظرية و التطبيق، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع،2011م، ط1، ص 544.

[2]- المرجع نفسه، ص 545.

[3] - ينظر: فائزة زيتوني، بنية التشاكل و التضاد في نصوص الكرامات الصوفية الجزائية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغة و الأدب،تخصيص أدب جزائري قديم،جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلية الآداب و اللغات، قسم اللغة و الأدب العربي، 2018/2017، ص 33-34.

مجموعة سُلَّمية من الدلالات تنتج إرسالية متشاكلة؟ لأن هناك شيئا أكيدا: سواء بدأنا بتحليل الخطاب من فوق، أي بالإنطلاق من وحدة معجمية، تتحدد بصفتها وحدة معنى، أو قمنا بتحليل الوحدات الدنيا المكونة، فإن مسألة وحدة الإرسالية التي تفهم بصفتها كُلاًّ دَلاًّ، تعد أمرًا مطروحاً بالضرورة."[1]

فالإتساق و الإنسجام الخطابي و التأكد من صحة المقروئية و وحدة النص هي الهدف الذي يحققه التشاكل عند غريماص.

– و يشير أيضا التشاكل في معجم تحليل الخطاب لـ "باتريك شارودو/دومنيك منغنو" : إلى جملة الوسائل المساهمة في انسجام مقطع خطابي أو رسالة ، و مثل هذا الانسجام القائم على تكرار نفس السمة على امتداد الملفوظات يتعلق خاصة بالتنظيم الدلالي للخطاب[2].

أي أن تكرار الملفوظات هي المساهمة في انسجام النص و اتساقه.

جـ– مصطلح التشاكل عند العرب :

عرف هذا المصطلح بعدة تسميات عند الباحثين و النقاد العرب، و من بين الذين درسوه و أعطوه تصورا موسعا نجد **الدكتور محمد مفتاح** الذي سوف نتطرق له فيما يلي:

[1]– جميل حمداوي ، المرجع السابق، ص545.

[2]- باتريك شارودو- دومنيك مينغنو، معجم تحليل الخطاب، ت: عبد القادر المهيري/حمادي صمود ، دار سيناترا،المركز الوطني للترجمة تونس، 2008، ص322.

- **محمد مفتاح** :أعطى من خلال كتابه : " **تحليل الخطاب الشعري** " **1985 م** تعريفاً جديداً للتشاكل يحتوي جوانب متعددة منها المعنوية و الشكلية و المنطقية و التداولية بحيث يعرفه بأنه تنمية لنواة معرفية سلبياً أو ايجابياً بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتية و معجمية و تركيبية و معنوية و تداولية ضماناً لانسجام الرسالة". [1]

و بعد اطلاع عبد القادر فيدوح على هذا التعريف، أدلى برأيه بما يلي: " إن التشاكل يتولد عنه تراكم تعبيري و مضموني تحتميه طبيعة اللغة و الكلام، ذلك أن هناك تشاكلات زمنية ومكانية و إبستومولوجية، و إستيسطيقية، تعمل على تحقيق أبعاد جمالية و إنفعالية و تأثيرية ضمن مناخات حرة تساعد المتقبل في أن يتفاعل مع المعنى وفق رؤياوية التأويل التى تمنح العمل الفني نوعا من الحرية في وظيفة الخطاب الشعري الذي من شأنه أن يجمع بين المتناقضين، و في ذلك الجمع غرابة في سر قبول الشعر و التلذذ به"[2].

و يعني هذا التعريف" أن التشاكل بمثابة تمطيط و توسيع و تكرار لنواة دلالية معينة أو تكرار لمقومات دلالية و سيميائية ، قد تكون فكرة أو عنواناً أو مقوماً أو بؤرة، أو جملة محورية أو مستنسخاً تناصياً ، و تتسم هذه النواة بالتراكم داخل النص ترددا و تواترًا ، بيد أن هذا التراكم قد يكون اختياريا خاضعا لحرية المبدع أو قسرياً إجبارياً تفرضه ضرورات اللغة و إمكانياتها المحدودة ، و ثم يشمل التشاكل البنية الدلالية و الوظيفة".[3]

---

[1] – ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، ط 4، الدار البيضاء، المغرب، 2005 م، ص 25 .

[2]– عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي دراسة سيمسائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية بوهران، ط1: 1993/7، ص97.

[3] – ينظر: جميل حمداوي، المرجع السابق، ص 553 .

أي أن التشاكل هو بمنزلة تضافر و تواتر وتجمع بعض المقومات الدلالية و السيميائية و تفاقمها داخل النص ، سواء كانت فكرة أو جملة أو مقوما...، .

- **و يعرف التشاكل عند أنور المرتجي:** بأنه حضور قاعدة دلالية تقدم إمكانية القراءة الموحدة للنص. إنها بتعبير آخر الوسيلة التي تسمح بالنظر إلى كل إرسالية في معناها الشامل. والغرض من دراسة التشاكل/ الإليزوتوبيا، هو حل مشكل تعدد المعاني الذي يعود إلى اختالف في السياقات من أجل إزالة الغموض الذي تعرفه تجربتنا عند القراءة.[1]

و المقصود من قول المرتجي أن التشاكل هو الذي يجعل القارئ يخوض داخل النص ويمكنه من فك الغموض و الكشف عن خباياه و تعدد معانيه خلال القراءة.

- **و في معجم السرديات لمحمد القاضي يعرفه بـ :** حصيلة تكرار عناصر معنوية تنتمي إلى مقولة واحدة، فالملفوظ المتشاكل هو ذلك الذي يحمل تكرار يوفر انسجام معناه.[2]

و نفهم من هذا القول أن تكرار المقولات و العناصر المعنوية داخل النص هي التي تحقق التشاكل فيه و تجعله شرطا من شروط استقامة أجزائه و اتساقها و انسجامها.

و في الأخير نخلص إلى أن مصطلح التشاكل قد تعددت تعاريفه، فقد حظي بأهمية كبيرة من طرف النقاد الذين تسارعوا في دراسته و تحليله.

[1]- أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، دار الثقافة و العالم، الشارقة، دبي، ص56.
[2]- محمد القاضي، معجم السرديات، محمد علي للنشر، تونس، ط 1، 2010، ص92.

ثانيا: مفهوم التباين في معناه العام هو: الإختلاف و التقابل

1- لغـــة: من المعاني اللـغوية للتبـاين:

"بَانَ، بَيْنًا و بُيُوناً و بَيْونُونَةً عنه: إنقطع عنه و فارقه. تباينت المرأةُ عن الرجل : إنفصلت عنه بطلاق . بَايَن، مُبَايَنَةً :هاجره و فارقه و خالفه."[1]

و جاء تعريف **التباين** في **معجم اللغة العربية المعاصرة** في باب **الباء** مادة "**ب ي ن**" "بان الشخص عنه / بان الشخص منه: بعُد و إنفصل و إنقطع عنه و فارقه "بانت المرأة عن / من زوجها : إنفصلت عنه بطلاق.

.باين فلاناً : هجرَهُ و فارقهُ.

.باين الشَّيْءَ: خالفَهُ و غايرَهُ "يُباينِ الإسلام كل الأفكار الوضيعة.

.تباين الصديقان : إفترقا، تهاجرا ، تقاطعا، تباعدا، " تباينا و سار كل منهما في إتجاه مستقل.

تباين مابينهما : تفارقا و تهاجرا .

تباين الأمران : تغايرا و إختلفا إتفقت الكلمتان في اللفظ و تباينتا في المعنى.

تباينت الأسبابُ :إختلفت، تباعدت و تفارقت".[2]

و ورد في **لسان العرب لإبن منظور** في مادة **(ب ي ن):**

"المُبَايَنَةُ : المُفَارَقَةُ . و تباينَ القومُ تهاجرُوا.

[1] – ينظر: خليل الجُرّ وآخرون، لاروس المعجم العربي الحديث, مكتبة لاروس، 18 شارع مونيارناس– باريس6، ص210–211.

[2] – أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط 1، ص 274.

و تباين الرجلانِ : بأَنَ كل واحد منهما عن صاحبه، وكذلك في الشركة إذا إنفصلا، وبانت المرأة عن الرجل، وهي بائِن: إنفصلت عنه بطلاق".[1]

فبعد تحديدات الدلالة المعجمية لمادة **(بين)** نلاحظ أنها كلها أجمعت على معنى المفارقة و الإنفصال والبعد والإختلاف.

2- إصطلاحا: تطرق العديد من النقاد العرب لمصطلح التباين بتسميات و تعاريف مختلفة ومن أشهر من تناوله :

أ-عبد الملك مرتاض:

إنه لمعروف لدى السيميائيين أن **التباين** يكون مُوقراً بشيء من الإنزياح بين وحدتين إثنين أو جملة من الوحدات، فيكون ذلك أول الشروط لظهور المعنى، و أيًّا ما يكن الشأن، فإن التباين لا يكون إلَّا على أساس من التشابه الذي يكون له بمنزلة دعامة يقوم عليها...[2]

فالتباين عنده يكمن في الإختلاف بين الوحدات النصية و هذا ما يزيد في جلاء المعرفة.

و عليه فإن **التباين** الذي نريد هو ما يطلق عليه باللغة الفرنسية (Hétérotopie) حيث أن هذا المصطلح منحوت من لفظين إغريقين، هما (Hetèros) و معناه "غير"

[1] – جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، **الجزء 13**، ص 75.

[2] – عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري (تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل إبن الحلبي، إتحاد الكتاب العرب-دمشق، 2005، ص21.

أو "آخر"، و(Topos) و معناه كما ذكرنا من قبل "مكان" فكأن الإيزوطوبيا "إنما هي المكان الآخر"، في مقابل "تساوي المكان".[1]

و لنا بعد أن أعدنا هذا المصطلح الغربي إلى أصوله الإغريقية التي إنحدر منها ، جاز لنا أن نترجمه بـ "**التباين**" كما نترجمه بالإختلاف، كذلك يمكن أن نستعمله تحت مصطلح..."التقابل".[2]

و قد ورد التباين تحت تصنيفات مختلفة، و بمصطلحات بلاغية كثيرة مثل: الخبر والإنشاء...، و مثل ما كانوا يطلقون عليه الطباق (الليل و النهار مثلا)، ومثل: المقابلة التي يمكن التمثيل لها بقول أحد البلغاء العرب: " ليس له صديق في السّر، و لا عدوّ في العلانية"...

و التباين واسع متشعب، يتخذ له طرائق قِدَدًا، من العسير حصرُها كلها هنا في هذا المدخل العجل، و هو مفهوم سيميائي يقوم على إدراك العلاقة الدلالية بين الموضوع و المحمول بحيث يمكن أن يقع القارئ في خديعة الألفاظ، كقولنا مثلاً "الصباح هو المساء" فهناك دالان يبدوان متباينيْن إذ أحدهما يعني الصباح، و أحدهما يعني المساء، بيد أن لفظ العلاقة "هو" هنا الذي أفضى إلى تفاعل هذه العلاقة بينهما فجعلهما شيئا واحدا فأفضى بهما إلى التساوي المطلق فإذا الصباح فعلاً، في هذا التمثيل، مساءً، ونتيجة لذلك فإذا المساء أيضا صباح، فكأن الأمر واحد...[3]

[1]– عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص21.

[2]– المرجع نفسه، ص21.

[3] – المرجع نفسه، ص22.

ب – محمد مفتاح:

التباين عنده هو "أحد المكونات الأساسية لكل ظاهرة إنسانية، ومنها اللغوية، و قد يكون مختفياً لا يرى إلا من وراء حجاب، وقد يكون واضحاً كل الوضوح حينما يكون هناك صراعاً وتوتراً بين طرفين أو أطرافاً متعددة ".[1]

"و من خلال النموذج المحلل ندرك أن **التباين** يكمن في التناقض بين أجزاء الخطاب كما يقوم على عنصر الصراع المتجلي تركيبيًا ما بين:

- الخبر /الإنشاء
- الجملة الإسمية / الجملة الفعلية
- الخطاب / الغيبية
- الإثبات / النفي
- النهي / الأمر
- الشيء / مقابلة (...و إن...لكن) ".[2]

و في الأخير يمكن القول إن ما شمله الفصل الأول الموسوم بـ: " **مفهوم التشاكل و التباين**" هو ما خطه حبر الدارسين، و إستخلصه بعض السيميائيين، في زحزحة حجب الغموض على المصطلحين، و إبراز قيمته و إستغلاله في النصوص السردية المعاصرة.

[1]– محمد مفتاح، المرجع السابق، ص71.

[2] – المرجع نفسه، ص71.

الفصل الثاني:

بنى التشاكل و التباين في كتاب البخلاء للجاحظ

أولا: تشاكل و تباين بنى البخل:

1- بخل الرجال
2- بخل النساء
3- بخل الصبية
4- بخل الحيوانات

ثانيا: التشاكل السميولوجي:

ثالثا: التشاكل الدلالي:

رابعا: المربع السيميائي:

البخل هو أحد الصفات المكروهة و المنبوذة في المجتمع العربي الإسلامي، فهذه الصفة تعد خلقا سيئا و مناقضا لطبيعة الإنسان العربي الأصيل المعروف بعطائه و سخائه، على عكس ذلك البخيل الذي جعله هذا الخلق كثير الزلات والمساوئ مع الله سبحانه و تعالى و مع الناس فقد نهانا ديننا الحنيف عنه، حيث قال الله تعالى : **"وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠."(سورة آل عمران ، الآية 180.)**

ويعتبر البخل من الظواهر الاجتماعية التي تفشت في المجتمع العباسي والتي أثمرت مذهبا خاصا بها، تتبناه مجموعة من البخلاء، حتى أن هذه الظاهرة كانت مثار نقاش كبير، وسالت بموجبها أقلام كثيرة، معبرة عنها تارة وناقدة لها ولأصحابها تارة أخرى .

ويعدّ الجاحظ من أبرز النقاد و الأدباء الذين سخروا من البخلاء ونددوا بغفلتهم في الحياة، بل و انتقدوهم نقداً لاذعاً.[1]

لذلك نجده في معظم قصصه ورسائله التي وردت ضمن هذا الكتاب، يركز على هذه الفئة من الناس ويبين مدى تمسكهم بهذا المذهب ودعوتهم للبخل، الذي كان بمثابة المقوم الأساسي الذي تدور جلّ نصوصه حوله، حيث دارت نصوصه السردية في الكتاب ضمن محاور متشاكلة شملت العناصر التالية :

[1]- ينظر: عبد الكريم الفزني، المضحك في كتاب البخلاء، الحوار المتمدن، محور: الأدب و الفن، العدد 2997- 2010/06/05.

أولا: تشاكل و تباين بنى البخل

1- بخل الرجال

2- بخل النساء

3- بخل الصبية

4- بخل الحيوانات .

و سوف نتطرق لكل واحدة منها على حدا كالتالي:

1- بخل الرجال:

و شمل عدة مجالات (المأكل و المشرب، اللباس، المال، السلوك و المعاملات ...) سنحاول الإحاطة بها جميعا.

1-أ- البخل في المأكل و المشرب:

يعيش نموذج البخيل نفسية مضطربة غير مستقرة، فهو في حالة قلق دائم، خاصة عندما يتعلق الأمر بالطعام، ونعني طعامه هو على وجهه الخصوص، فهو يعيش في عذاب مستمر يراقب كل ذرة من طعامه، و تتمزق نفسه بقدر تمزق مائدته،

و عليه يمكن أن نقسم الصورة التي رسمها لنا الجاحظ بهذا الخصوص من خلال عرض نماذج مختلفة لهذا النوع من البخل المادي في المأكل و المشرب :

- **سهل بن هارون و مذهبه:**

و جاء في رسالة سهل بن هارون فيما يتعلق بالاقتصاد في الإنفاق في الطعام قوله: "عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عَجْنه خَمِيرا، كما أجَدْته فَطيرا، ليكون أَطْيَب لطَعْمِه، وأَزيدَ في رَيْعِه".[1]

فمن خلال قوله نلاحظ أنه كان يوصي و يلح على خادمته بأن تجيد العجن ليكون ذلك أكثر و أزيد في ريع العجين، أي في نموه، فهو ينادي بالتوفير في الطعام، و لدعم قوله هذا استشهد بكلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهله: " أَمْلِكُوا العجين ، فإنه أريع الطَّحْنَتَيْنِ"[2]، فحجته حاضرة و شاهده في قوله مقنع.

وقال في الموضوع نفسه: "وعبتموني حين قلت للغلام: إذا زِدْتَ في المَرَق فَزِد فِي الإنْضَاج، لتَجْمَعَ بين التأدُّم باللحم و المَرَق، و لتجمع مع الارتفاق بالمَرَق الطَيِّبَ".[3]

و قد استشهد في قوله هذا بحديث **الرسول صلى الله عليه و سلم:** " إذا طبختم لحما فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدكم لحما أصاب مرقا".[4]

لقد وجد بخلاء الجاحظ ما يؤكد طريقتهم ويؤيد منهجهم وذلك بأحاديث من السنة النبوية و أقوال مأثورة عن الصحابة، و هو ما يدل على عمق فهمهم لآداب البخل و تأصيل لأبجدياته وتنظير لممارساته.

---

[1] – الجاحظ، المصدر السابق، ص34.

[2] – المصدر نفسه، ص 34.

[3] – المصدر نفسه، ص 36.

[4] – المصدر نفسه، ص 36.

زد إلى هذا مناداته إلى الاقتصاد في الماء، فقال: " من لم يعرف مواقع السَّرَفِ فِي الموجود الرَّخِيصِ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في المُمْتَنِع الغالي: فلقد أُتِيتُ من ماء الوضوء بكيْلَة يدُلُّ حجمها على مبلغِ الكفاية، و أشفَّ من الكفاية ".[1]

و ما نستنتجه من قوله هذا، أنه كان يشح في الماء ظنا منه أنه مقتصداً و موفراً. و استشهد أيضا في هذا بقول الحسن عند ذكر السرف: " إنَّهُ لَيكُون في المعونَيْنِ الماء و الكَلإِ. فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلإِ".

و أورد الجاحظ أيضا قوله: "عبتموني حين خَتَمْتُ على سَدٍّ عظيم، و فيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، و من رُطَبَة غريبة، على عَبْدٍ نَهِم و صبِّي شجِع و أُمةٍ لَكْعَاء و زوجة خَرْقاء".[2]

فالمتمعن في قوله يكاد يصدقه، لكن سرعان ما ينتبه لشدة بخله و شحه، و هذا يتعارض مع ما كانت العرب تجود به من كرم وسخاء خاصة في الطعام.

- **المَرْوَزِيُّ و الضيف:**

ينقل لنا الجاحظ ما يقوله "المَرْوَزِيُّ للزائر إذا أتاه، وللجَلِيس إذا طال جُلوسُهُ : تغدَّيت اليومَ ؟ فإنْ قال : نعم، قال : لولا أنَّك تغدَّيت لغدَّيتك بغَذَاءٍ طيِّب، وإن قال : لا، قال : لو كُنْتَ تَغَدَّيْتَ لسقيتُكَ خمسةَ أقدَاح".[3]

[1] – المصدر السابق، ص 35.

[2] – المصدر نفسه ، ص 35.

[3] – المصدر نفسه، ص 45.

فهنا يظهر بخل المَرْوَزيُّ في الطعام، وحيلته التي استخدمها للجليس لكي لا ينال منه شيئا على الوجهين، و هذا ما يبين لنا نفسيته البخيلة التي لا تكرم الجليس أو الضيف على عكس ما كانت تتميز به العرب من شمائل حميدة.

- **الكندي و جاره:**

يذكر الجاحظ ما حدثه به عَمْرُو بن نِهْيَوِي، قال : تَغدَّيتُ يوما عند الكِنْدِيّ. فدخلَ عليه رجل كان له جارًا، و كان لي صديقا، فلم يعْرِض عليه الطعامَ و نحن نأكلُ. و كان أبخلَ من خَلَق الله، قال : فاسْتَحيْتُ منه، فقلتُ : سبحانَ اللهِ، لو دَنَوْتَ فأصَبْتَ معنا ممَّا نأكل! قال : قد والله فعلتُ، فقال الكنْدِيّ : ما بَعَدَ الله شيء! قال عمرو : فكَتَفَه والله كَتْفاً لا يستطيعُ معه قَبْضًا ولا بسْطاً وتركه.[1]

نلاحظ هنا بخل الكندي على جاره في الطعام حتى أنه لم يدعوه ويعرض عليه الأكل وهذا بسبب شراهته ولهفته، وعليه ما نستنتجه من حلفان الجار له، كان بمثابة طمأنينة له، لأن ما بعد الله شيء. وهذا ما أراده ، و لعل ما دعى إليه (الكندي) ، يتنافى مع ما تتسم به العرب ، فهم يشتهرون بسخائهم و جودهم و كرمهم للضيف حتى و لو بالقليل.

[1]– المصدر السابق، ص 45-46.

- **الخراساني و استغلاله لسمن القوم:**

يروي الجاحظ عن إبراهيم بن سيّار قائلا: " دعانا جار لنا، فأطعمنا تمرا و سمنا و معنا خراساني يأكل فرأيته يقطر السمن على الخوان* حتى أكثر من ذلك، و قلت لرجل إلى جانب : ما لهذا الخراساني يضيع سمن القوم، و يغرف فوق الحق؟ قال: ألم تعرف السبب؟ قلت: لا! قال: لأن الخوان له و يريد أن يدسمه ليكون كالدبغ له، و لقد طلق إمرأته لأنها غسلت خوانا له عليه دسم بماء حار و قال لها : هلاّ مسحته! ".[1]

و هنا تظهر شراهة و نهم الخراساني من سمن القوم (أكل غيره) بغية الاستفادة منه لتدسيم خوانه لدبغه، و هذا ما يبين بخله في عدم الإنفاق على ذلك.

- **إنفراد الخراساني في الأكل:**

قال أبو نُوَاسٍ للجاحظ: "كان معنا في السفينة و نحن نُرِيدُ بَغْدَادَ رجلُ من أهل خُراسان. و كان من عقلائهم و فُهَمائهم. فكان يأكل وحدَه، فقلت له: لِمَ تأكلُ وحدك؟ قال: ليس عليّ في هذا المَوْضع مسألة، إنما المسألةُ على مَنْ أكَلَ معَ الجماعة، لأنَّ ذلك هو التكلُّف، و أكْلِي وحْدِي هو الأصلُ. و أكْلى مَعَ غيري زيادةُ في الأصل."[2]

و هنا يظهر أن البخل ليس مجرد خلق تحلو به، بل هو فلسفة حياة و منطق خلصت إليه تجاربهم الحياتية القاسية.

---

*(**الخِوَانُ**) : ما يؤكل عليه .

[1]- المصدر السابق، ص55.

[2] – المصدر نفسه، ص56.

- **خوف الشيخ الخراساني على أكله :**

يقول الجاحظ عن ما حدثه به إبراهيم بن السندي عن شيخ من أهل خراسان اعتاد الأكل في كل جمعة في أماكن مخضرة بها ماء جاري، فقال عنه: " بينما هو يوما من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال: هَلُمَّ – عفاك الله ! فلما نظر إلى الرجل قد انْثَنَىَ راجعا، يريد أن يطفر الجدول، أو يُعَدِّي النَّهر، قال له مكانك، فإنّ العَجَلةُ من عمل الشيطان ! فوقف الرجل، فأقبل عليه الخُرَاسَانِيُّ و قال: تريد ماذا؟ قال: أن أتغدَّى. قال: و لمَّ ذلك؟ و كيف طمعت في هذا؟ و من أباح لك مالي؟ قال الرجل: أو ليس قد دعوتني؟ قال: ويلك ! لو ظننتُ أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام. الآبِينُ* فيما نحن فيه أن نكون إذا كنتُ أنا الجالس و أنت المار، تبدأُ أنت فتسلم، فأقول أنا حينئذٍ مجيبا لك: و عليكم السلام. فإن كنت لا آكلُ شيئاً سكتُ أنا، و سكت أنت، و مضيت أنت، و قعدتُ أنا على حالي!و إن كنت آكلا فهاهنا بيان آخرُ: و هو أن أبدأ أنا، فأقولَ: هلُمَّ، و تجيبَ أنتَ، فتقول: هنيئاً، فيكون كلام بكلام. فأما كلام بفَعَال، و قول بأكْل، فهذا ليس من الإنصاف! و هذا يُخْرِجُ علينا فضلا كثيرا! قال: فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه، فشهر بذلك في تلك الناحية."[1]

يتوصل بخلاء الجاحظ إلى حكم و خلاصة تجارب تضرب مضرب الأمثال (كلام بكلام ...)، و هي تذم عن عمق في الفهم لآليات اشتغال البخل و بلاغة

*– الآبِينُ: بمعنى العادة أو القانون.

[1] – الجاحظ، المصدر السابق، ص 58.

و فصاحة حاضرة دائما في رد البخيل لكل من شعر انه يهدد أمنه المادي و يطمع في الانتفاع منه بشيء مهما كان ضئيلا.

- **البخيل المريض:**

روى الجاحظ عن رجل مَرِضَ قال:" اشتكيت أياما صدري من سعال كان أصابني فأمرني قوم بالفانيد السكرين و أشار عليَّ آخرون بالحريرة تتخذ من النَّشاسْتَجْ* و السكر و دهن اللوز، و أشباه ذلك فاستثقلت المؤنة و كرهت الكلفة، و رجوت العافية، فبينما أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموفقين: عليك بماء النخالة فأحسه حارا، فحسوت فإذا هو طيب جدا، و إذا هو يعصم: فما جعت و لا اشتهيت الغداء في ذلك اليوم غلى الظهر، ثم ما فرغت من غذائي و غسل يدي حتى قاربت العصر، فلما قرب وقت غذائي من وقت عشائي طويت العشاء، و عرفت قصدي... "[1]

و هنا تظهر صورة بخل الرجل حتى على صحته بحيث اختار الرأي الذي يكلفه أقل، فيستفيد منه بمعافاته و حتى في مؤنته فيشفى و يشبع في آن واحد.

- **الحارثي و تعصبه للأكل و الأكلة:**

قال الجاحظ: " قيل للحارثي بالأمس: و الله إنك لتصنع الطعام فتجيده، تعظم عليك النفقة، و تكثر منه، و إنك لتغالي بالخباز و الطباخ و الشواء و الخباص،

*– النشاستج: النشاء.

[1] – الجاحظ، المصدر السابق، ص66.

ثم أنت مع هذا كله لا تشهده عدوا لتغمه و لا واليا فتفره و لا جاهلا لتعرفه و لا زائرا لتعظمه و لا شاكرا لتثبته و أنت تعلم حين يتنحى من بين يديك و يغيب عن عينيك فقد صار نهبا مقسما و متوزعا مستهلكا، فلو أحضرته من ينفع شكره، و يبقى على الأيام ذكره... فقال: " الفتى لا يكون نشالا، و لا نشَّافًا، و لا مرسالا، و لا لكّاما، و لا نفَّاضًا ، و لا دلَّاكًا ، و لا مَصَّاصا ، لا مقوِّرا ، و لا مغربلاً، و لا مُحلِقما ، و لا مسوِّغا ، و لا مبلعمًا ، و لا مُخَضّرا .*"[1]

إذن نستنتج من خلال ما جاء به الحارثي حين عاتبته جماعة عن جوده في الطعام و مغالاته فيه أنه كان يدّعي فعل الكرم ليشهد له الناس بذلك، و في نفس الوقت تظهر لنا معاناته النفسية و هو ينظر لهم مجتمعين حول مائدته كأنهم وحوش تنهب أكله.

- **الكندي و طَمَعُه في الأكل:**

قال الجاحظ عن عَمْرُو بن نِهَيْوِي قال :" كان الكِنْدي لا يزال يقُول للساكن ، و ربما قال للجار:" إنَّ في الدار إمراةً بِهَا حَمْلُ ، و الوَحْمى رُبَما اسْقَطَتْ من ريح القدْرِ الطَيَّبةَ! فإذَا طَبَّخْتمْ ، فرُدُوا شَهْوَتَهَا، و لو بِغَرفَةِ أَوْ لَعْقَة ، فإنَّ النفسَ يردُّه إلا اليسيرُ! فإن لم تفعلْ

[1]- الجاحظ، المصدر السابق، ص 121-122.

ذلك بعد إعْلاَمي إيَّاك، فَكفَارتك – إن أسقطت غرة عبدُ أو أَمة، ألْزَمْتَ ذلك نْفَسكَ أم أَبيْتَ."[1]

هنا تظهر لنا الحيلة التي استخدمها الكندي لجاره بغية الاستفادة من طعامه و هي ادعائه بأن في البيت امرأة تتوحم يجب أن تذوق من طعامه و إلا أسقطت و بقي الذنب في رقبته.

- **محمد بن أبي المُؤَمَّل:**

قال الجاحظ لمحمد بن أبي المؤمن : " أراك تطعم الطعام و تتخذه، و تنفق المال و تجود به و ليس بين قلة الخبز و كثرته كثير الربح و الناس يبخلون من قل عدد خبزه و رأى أرض خوانه و على أني أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك و أنت لو لم تتكلف و لم تحمل على مالك بإجادته، و التكثير منه ثم أكلت وحدك لم يلمك الناس و لم يقضوا عليك بالبخل و لا بالسخاء... فقد صرنا لقلة عدد خبزك من بين الأشياء التي نرضى لك من الغنيمة بالإياب و من غنم الحمد و الشكر بالسلامة من الذم و اللوم فزد في عدد خبزك شيئا فإن في عدد خبزك شيئا فإن بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكرا... "[2]

فهذا أبي المؤمَّل كان يطعم الناس بطعام جيد و ينفق المال من أجل ذلك و يدعو عليه أصدقائه لكي يشتهر بالكرم و الجود و لا يقال عنه أنه بخيل فكان مما عيب عليه قلة خبزه كما قال الجاحظ و كان يبرر ذلك بأن كثرة الخبز تورث في النفس صدودا و أن كثرة

[1]– الجاحظ، المصدر السابق ، ص 143.

[2]– المصدر نفسه ، ص 171.

الشيء إذا ملأت العين تميت الشهوة فأخذ عليه الجاحظ هذا و قال له: " إني قد رأيت أكلهم في منازلهم و عند إخوانهم و في حالات كثيرة و مواضع مختلفة و رأيت أكلهم عندك، فرأيت شيئا متفاوتا.[1]

فهذا حديث قاله الجاحظ لكي يبين له أن هناك فرق بين أكل هؤلاء الناس عنده و في منازلهم، فكان يريد منه أن يصلح أمره هذا (قلة الخبز) بشيء لا يكلفه و لا يأتيه باللوم و الذم، فلما أدرك أبو المؤمل أن الجاحظ كشف بخله أجابه "بأن الخبز إذا كثر على الخوان فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطيخ و التغمير... فيذهب ذلك الفضل باطلا".[2]

فالملاحظ لقصة أبي المؤمل و حججه التي كان يصوغها للجاحظ في كل مرة على قلة خبزه يدرك بخل هذا الرجل في أقل شيء نفقة، فهو الهدف الذي كان يرجوه من وراء هذه الدعوة هو فقط اشتهاره بالكرم و الجود و ليس رغبة في إطعامهم و إكرامهم.

ومن صور البخل المتشاكلة أيضا نجد نماذج كان أبطالها جماعة من البخلاء من مثل:

- **حجاج أهل خراسان:**

قال الجاحظ أنه رأى "حمَّارةً* منهم ، زهاء خَمْسين رجلًا ، يتغدون على مَبَاقِلَ بِحَضْرَةِ قريْة الأعراب ، في طريق الكُوفَة ، وهم حجاج . فلم أر من جَمِيع الخمسينَ رَجُلين

[1]- ينظر: المصدر السابق ، ص 143.

[2]- ينظر: المصدر نفسه ، ص 174.

* **حمَّارةً:** أصحاب الحمير في السفر.كما يقال لأصحاب الجمالة **جمَّالة**.

يَأَكُلان معًا، وهم في ذلك متقاربُون، يحدِّث بعضُهم بعضا. و هذا الذي رأيتُه منهم منْ غريب ما يتفق للناس.[1]

فهنا يظهر جليا بخل الجماعة فكل واحد يتغذى لوحده ولا يأكل مع الجماعة خوفا من أن ينتقص من أكله ، وربما نفسيتهم الجشعة دعت إلى هذا وعدم الاجتماع في الأكل، وعليه صفة الانفرادية من السمات التي يتصف بها الإنسان البخيل على عكس الإنسان السخي الذي يجمع الناس على مائدة واحدة.

- **قسمة اللحم عند أهل خراسان:**

زد إلى هذا قصة الجماعة الذين زعَمُوا أنهم ربما "ترافقوا وتزاملوا، فتناهدوا وتلازقوا* في شراء اللحم، و إذا اشتروا اللحم قسمُوه قبل الطبخ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه، فشكه بخوصَةٍ أو بخيط، ثم أرسلَه في خِلِّ القدر والتوابل. فإذا طبخوا تناول كل إنسان خَيْطَه وقد علَّمُه بعلامة، ثم اقتسموا المرق، ثم لا يزال أحدهم يسُلُّ من الخيط القطعة بعد القطعة ،حتى يَبْقى الحبل لاشيء فيه ثم يجمعون خيوطهم . فإن أعادوا الملازقة أعادوا تلك الخيوط لأنها قد تشربت الدسم ورويت".[2]

و المتمعن لهذه القصة يرى شراهة وجشاعة ونهم هذه الجماعة في الأكل، فيتفطن لشحهم و تقتيرهم وبخلهم في الطعام الذي وصل بهم إلى أن جعل كل واحد منهم علامة

[1] – المصدر السابق ، ص47.

*– **تلازقوا:** كانوا معا، و المراد المناهدة (المرافقة).

[2] – المصدر نفسه ، ص 54 .

على القطعة الخاصة به قبل أن يضعها في القدر، إضافة إلى أنهم كانوا يقتسمون المرق و يجمعون الخيوط لأنها تشربت الدسم ورويت لكي يعيدوها في المرة الأخرى و لا يأتون بأخرى جديدة تتطلب منهم مؤنة جديدة شحا منهم وبخلا.

و عليه نرى بأن ما ذهب إليه أهل مرو يتعارض مع ما تفتخر به العرب من كرم وجود وسخاء وعطاء .

كثيرة هي القصص التي جاءت على هذا المنوال ، التي ارتبط فيها البخل بالطعام و آدابه. و هذا ما حلله علماء النفس و الاجتماع أن أقرب شيء لنفس الإنسان هو الطعام، لذلك نجد الإنسان دائماً حريصاً عليه من أن يفتقد ، و هذا **يتباين** مع ديننا الحنيف الذي دائماً يوصنا بالكرم والجود كإطعام المساكين و النفقة على الفقراء، فالإنسان العربي السخي دائما نجد فيه هذه الصفات الكريمة التي يحبها **الله تعالى** و الناس معاً، على عكس تلك الصفة الذميمة (البخل).

فنلاحظ في كل مرة و مع كل نموذج كيف يسعى البخيل من خلال فلسفته البخيلة التي تبناها منهجا للعيش أنه يقوم بعقد مقارنة بين الشح و البخل و الكرم و السخاء، و يقدم الأدلة و البراهين و يستشهد بكلام الأولين ليؤكد حقيقة انتصار البخل و أحقيته ليكون أسلوب حياة و منهج ينبغي أن يتبعه الجميع لينجو و يظفر بعيش هانئ سعيد.

1-ب- البخل في الـــمَلبس:

اللباس هو مظهر الإنسان الذي يبرز شخصيته و صفاته و يعرف من خلاله إن كان سخيا أو بخيلا حتى على نفسه و ليس فقط على الآخرين، و مما جاء في

هذا نورد ما ذكره سهل بن هارون حين دعى إلى الاقتصاد في الإنفاق بما يتعلق باللباس: فقال في ذلك: وعبتموني بخَصْفِ النِّعال، وبتَصْدِير القميص،وحينَ زعمتُ أنَّ المَخْصُوفَةَ أَبْقَى وأَوْطَأُ وأَوْقَى، وأَنْفَى للكِبْر، وأشبهُ بالنُسُك، وأنَّ الترقِيع من الحَزْم وأَنَّ الاجتماعَ مع الحِفْظ وأنَّ التَفَرُّق مع التضييع.[1]

فكان يرى أن النعل المخصوف والقميص المصدور أفضل وأحسن من حيث الراحة بدل الجديد، لكن هو لم ينظر لهما من باب الراحة والوقاية بل لشدة بخله وشحه لكي لا ينفق مالاً للإتيان بآخر جديد، حتى أنه أصبح يشبه لباسه هذا (أي المرقع و نعله المخصوف) كأنه لباس الزهاد الناسكين المتعبدين، ولإثبات رأيه في هذا ذكر ما كان عليه **الرسول صلى الله عليه و سلم** بأنه كان يخصِفُ نعلَه، و يُرَقِّعُ ثوبه.

فالقارئ المتفطن حينما يتمعن في قوله وبما كان عليه **الرسول عليه أفضل الصلاة و السلام** يدرك حيلة وتلاعب سهل بن هارون في مذهبه إلى البخل والشح و الحفاظ على المال من التضييع . وربما نفسية الإنسان الشحيح تكون دائما أحرس على جمع المال و حفظه من التضيع .

- **خفاف المراوزة:**

يروي الجاحظ عن أبي سعيد سجادة "أن أناس من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستّةِ الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر،

[1] – الجاحظ، المصدر السابق، ص 37.

و على أعقاب أرجلهم ثلاثةَ أشهر، حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خِفَافهم إلا ثلاثةَ أشهر مخافة أن تَنْجرد نِعالُ خِفافِهم أو تنقب."[1]

و هنا نلاحظ شدة بخل هؤلاء الجماعة بحيث يعرضون أقدامهم للأذى خشية تمزق أو تلف خفافهم فيشترون أخرى.

في هذا السياق أيضا نذكر ما حكاه إبراهيم بن سيار النظام للجاحظ عن جاره المروزي " أنه كان لا يلبس خفا و لا نعلا إلى أن يذهب النبق اليابس لكثرة النوى في الطريق و الأسواق."[2]

- **الحزامي و مناظراته في الكساء:**

و هذه قصة رواها الجاحظ عن مناظرته مع الحزامي الذي كان يعيبه على ارتدائه لكساء الصوف في غير وقته قائلا له : "ما أَقْبَحَ السَّرَفَ بالعاقل، و أَسْمَحَ الجهل بالحكيم! ما ظننتُ أنَّ إهمال الَّنْفسِ و سُوءَ السِّياسة بَلَغَ بك ما أرى!"[3] ، فقال الجاحظ مبررا فعله: " قد حَدَثَ من البَرْد بمقْداره و لو كان هذا البردُ الحادثُ في تَمُوزَ و آبَ لكانَ إيَّانًا لهذا الكسَاء. "[4] فلم يقتنع الحزامي بتبرير الجاحظ للباسه فقال له:" إنْ كان كذلك، فاجعل بَدَلَ هذه المبطَّنة جُبَّةً مَحْشُوّة , فإنها تقُوم هذا المَقَام ،وتكونُ قد خرَجْتَ من الخَطَإ. فأمَّا لُبْسُ الصُّوف اليومَ فهو اليومَ غَيْرَ جائز"[5].

---

[1]– الجاحظ، المصدر السابق، ص 62.

[2]– المصدر نفسه ، ص 62.

[3] – المصدر نفسه ، ص 108.

[4] – المصدر نفسه ، ص 109

[5] – المصدر نفسه، ص 109.

فمن خلال هذا الحوار الذي جرى بينهما يبرز لنا شح و بخل الحزامي الذي يدفعه يحسب كل شيء حسابه، و يحرص على الاستعمال الأمثل و الأصح للأشياء كرؤيته (الجبة المحشوة)، بأنها أفضل و أنسب للاستعمال من كساء الصوف في بدايات البرد، و له في هذا ما يثبت حجته و رؤيته ، و عليه فالبخيل نجده دائما ما يبرز فعله هذا (المذموم)، فبهذه المناظرة التي حصلت بين الجاحظ و الحزامي يظهر لنا جليا التباين الحاصل بينهما ، و هذا ربما ما يزيد في تأكيد معنى البخل في الكتاب و ما ورد فيه من هذا المنوال.

إن تقديم البخلاء للحجج و البراهين ليوقع في نفس القارئ الحيرة و الارتباك و يكاد يوهمه بأن البخل هو الأصل و الأساس و الأسلم، و أن الكرم هو الشذوذ و القبح و الضياع.

1-جـ - البخل في المـــال:

و جاء في رسالة سهل بن هارون ما تعلق بالإنفاق بالحلال و الحرام، فحسب رأيه الحلال ينفق في الحلال، و الحرام ينفق في الحرام حيث قال : " وزعمتُ أنَّ كَسْبَ الحلال مُضَمَّنُ بالإنفاق في الحلال، وأنَّ الخبيث يَنْزِع إلى الخبيث، وأنَّ الطّيِّب يَدْعُو إلى الطيّب، وأنّ الإنفاقَ في الهَوَى حِجابُ دُونَ الحُقوق، وأنَّ الإنفاق في الحقوق حجَازُ دُونَ الهَوَى. فعبتم علَّي هذا القولَ ."[1]

[1] – الجاحظ، المصدر السابق، ص40.

أي أن إنفاق المال في ميول النفس وشهواتها يحجبها على أن تؤدي حقوق الناس و العكس أي الإنفاق في الحق و الواجب هو الصحيح .

زد إلى هذا أنه ربط بين الغنى وشرب الخمر، حيث جعل المال يسكر صاحبه في نشوة تدخله في عالم لا يشعر فيه بما حوله، فقال : "إن للغِنَى سُكْرا، وإنَّ للمالِ لنَزْوةً، فمن لم يحفظ الغِنَى من سُكْر الغِنَى فقد أضاعه، ومن لم يرْتَبِطِ المالَ بِخَوفِ الفَقْرِ فقد أهْمَله فعبتموني بذلك."[1]

و لم يقف عند هذا الحد فقط بل أقرّ بأولوية وأفضلية المال على العلم فقال : " و عِبْتموني حينَ زَعمتُ أنِّى أقدِّمُ المالَ على العِلْم، لأنَّ المال به يُغَاث العالِمُ، وبه تَقُوم النُّفوس قَبْلَ أن تُعْرَفَ فضيلةُ العلمِ، و أنَّ الأصل أحقُّ بالتفضيل من الفَرْع، و أنِّى قلت : وإنْ كُنَّا نَسْتَبِينُ الأمورَ بالنُّفُوس، فإنَّا بالكِفَاية نَسْتَبينُ، وبالخَلَّةَ نعْمَى."[2]

فمن خلال قوله هذا نرى أنه يفضل المال على العلم، ففي رأيه المال هو الذي يحصل العلم لا العكس، و ربما حبه للمال هو ما جعله ينظر إلى أولويته و تفضيله على باقي الأشياء كالعلم الذي ذكره مثلا .

و أصدر حكما في التبذير حيث قال : "عبتموني حين زعمت أنَّ التبذير إلى مال القمار، و مال الميراث، و إلى مال الإلتقاط، و حِباء الملوك، أسْرَعُ، و أنَّ الحفظ إلى المال المُكْتَسَبْ، و الغنىَ المُجْتَلَبِ، و إلى ما يُعْرَضُ فيه لذَهَاب الدِين، و إهتضام العِرْض، و نَصَب البدَن، و إهتمام القلب أسرَعُ، و أنَّ من لم يَحْسُب ذهاب نفقته، لم يحسب دخْلَه،

[1] – المصدر السابق، ص41.

[2] – المصدر نفسه، ص42.

و من لم يحسب الدَّخْل فقد أضاع الأصل، و أنَّ من لم يعرف للغنَّى قدْرَه، فقد أذِنَ بالفقر، و طابَ نفسا بالذُّلِّ."[1]

و نحن نلاحظ كيف تتشاكل تلك النماذج في كل مرة و تتواتر في تأكيد سلوك و خلق البخل و مدحه و الإشادة به و كيف تباين خلق و سلوك الكرم و السخاء و تذمه و كأنها في كل مرة تعقد مقارنة محسومة بين كل منهما في انتصار ساحق على الكرم من مناحي شتى بزعمهم.

1-د- البخل في السلوك و المعاملات:

يتأثر السلوك الإنساني بعدة عناصر متداخلة منها الدينية، الأخلاقية، الاجتماعية و الاقتصادية... و غيرها، فيتطبع بها وسنبدأ بعرض مجموعة صور تمثل سلوكيات فردية فيها ضرب من التعدد في معاني البخل الذي يرسم وجها ذا سمات سلبية بؤرية في كامل قصص الكتاب، و قد ظهر ذلك عبر اتجاهين: سلوك فردي و سلوك جماعي في البخل و الشح، ولنعرض أوّلا السلوك الفردي:

- **الوالي الفارسي و مكافأة الشاعر:**

قال الجاحظ: "حدثني محمد بن يسير عن والٍ بفارس كان يوما و هو مشغول بأمر له إذ دخل عليه شاعر فمدحه و مجَّده، فلما فرغ ، قال له: أحسنت، ثم أقبل عليه كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم، ففرح الشاعر فرحا شديدا، فلما رأى حاله قال: و إني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع؟ اجعلها عشرين ألف، فكاد الشاعر يخرج من جلده، فلما رأى

[1] - المصدر السابق ، ص 39-40.

فرحه قد تضاعف قال: و إن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألف، فكاد الفرح يقتله، فلما رَجعتْ إليه نفسه قال له: أنت جعلت فداك! رجل كريم، و أنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا، زدتني في الجائزة و قبول هذا منك ليكون إلا من قلة الشكر له، ثم دعا له و خرج، قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان الله! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ قال: ويلك و تريد أن تعطيه شيئا؟ قال: و من إنفاذ أمرك بُدٌ ؟ قال: يا أحمق، إنما هذا رجل سرنا بكلام و سررناه بكلام! ، هو حين زعم أني أحسن من القمر، و أشد من الأسد، و أن لساني أقطع من السيف و أن أمري أنفذ من السنان، هل جعل في يدي من هذا شيئا أرجع به إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ لكنه قد سرنا حين كذب لنا، فنحن أيضا نسره بالقول و نأمر له بالجوائز و إن كان كذبا، فيكون كذبا بكذب و قولا بقول، فأما أن يكون كذبا بصدق و قولا بفعل فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به."[1]

يقابل البخيل الفعل بالفعل، و الكلام بالكلام، و يجب أنه من الإسراف الباطل أن يقابل مجرد كلام بفعل.

- **المروزي و نكران الجميل:**

هذا المروزى يستغل طيبة و شهامة و صداقة العراقي له، فكان ينزله (العراقي) عنده في كل مرة يحج و يتجر فيها، فيزعم البخيل أنه سيرد له جميله هذا و يكافئه على قديم إحسانه و ما فعله له في كل زيارة، و بعد أيام عديدة جاءت لذلك العراقي حاجة في تلك

[1] – الجاحظ، المصدر السابق، ص 59.

الناحية، "فكان مما هون عليه مكابدة السفر و وحشة الاغتراب مكانُ المروزى هناك، فلما قدم إلى المروزى تنكر له، و ادعى عدم معرفته له، فحاول العراقي أن يعرفه بنفسه و يذكره بكلامه، لكن دون جدوى، فلقد تنكر له و قطع كل أمل في الرجاء، و أنهى الموقف بهذه الجملة: " لو خرجت من جلدك لن أعرفك ".[1]

و يتخلص البخيل من وعوده و يقابل الإحسان بالإساءة لأن في رد الجميل إخراج لماله و هو ما لا يطيق فعله، وما يناقض طبعه وأصله الخسيس.

و في هذا النموذج تظهر لنا صورة نكران الجميل التي اتسم بها المروزى اتجاه العراقي الذي طالما أحسن إليه، و ما ذلك إلا بخلا و شحا منه.

- **الكندي و مستأجر داره:**

لم يكتف الكندي من الاستفادة من طعام مستأجره، فقد ذهب لزيادته في الأجر عند مجيء الضيوف له، و جعل لهذه الزيادة رسالة طويلة تتعدى ست صفات، يدور جلها على الشروط التي فرضها عليهم، و ما يترتب على ما يتركه سوء استخدام المستأجرين من أثر على داره، كما تعرض أيضا سبل المحافظة على هذه الدار، و بالرغم مما يفعله معهم و يشترطه عليهم، إلا أنهم " كانوا لطيبه، وإفْراط بُخله، وحُسْنِ حَدِيثه يَحْتمَلون ذلك."[2]

فكان بدلا من أن يعطيه كاري الدار ثلاثين درهم يعطيه أربعين على زيادة الضيفين اللذان نزلا داره. و هكذا واصل الكندي في شروطه على مستأجر داره و ما يترتب عليه من

[1] –ينظر: المصدر السابق، ص 53.

[2] – المصدر نفسه ، ص145.

زيادة عند نزول الضيوف عنده، و هذا ما يتنافى مع شيم الإنسان العربي المضياف الذي يحيط ضيفه بكل ما يلزمه من أجل حسن ضيافته و استقباله و إعطائه حقه كما يجب.

ليس للبخيل فعل بلا مقابل، فكل زيادة في الفعل لابد أن تعني زيادة في ماله، فلا يمضي أي فعل بلا ثمن يدفع.

فلم يكن البخل سلوكا عابرا، بل هو احتياط و سبل نجاة للبخيل من الوقوع في شهوة الإنفاق و العطاء، و هم إنما يدافعون عن خياراتهم بكل ما أوتوا من الحكمة و الموعظة، و يحاججون في ذلك بحجج قوية دامغة.

ومن النماذج الموجودة في الكتاب والدالة على أنماط من البخل الجماعي في السلوك والمعاملات.

- **مصباح الخرسانيين:**

"زعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل و صبروا عن الإنتفاع بالمصباح ما أمكن الصبر، ثم إنهم تناهدوا و تخارجُوا و أبَى واحد منهم أن يعينهم و أن لا يدخل في الغرم معهم، فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل، و لا يزال و لا يزالون كذلك على أن يناموا، و يطفئوا المصباح و فإذا أطفؤا أطلقوا عينيه"[1].

يتبين لنا من خلال هذه القصة شدة بخل هؤلاء الأصحاب الخراسانيين لدرجة أدى بهم لتعصيب عيني صاحبهم لكي لا ينتفع معهم من ضوء المصباح.

[1] – المصدر السابق، ص47.

ثانيا: بخل النساء:

البخل ليس صفة لصيقة بالرجال، بل هو فيما ذكره الجاحظ يمس أصنافا عدة و أعمارا كثيرة لم يسلم منه الصغير و لا الكبير و لا المرأة و لا الرجل، بل و حتى الحيوان، و نذكر هنا حالات عن بخل النساء في ثلاث نماذج موجودة في الكتاب هي كالآتي:

- "قصة **مريم الصناع** مع إبنتها التي زوجتها وهي بنت إثنَّى عشر لتتخلص من مؤنتها ومصروفها وتربيتها، فحلتها الذهب و الفضة، و كسَّتها المَرْوِيّ و الوَشْيَ و القَزَّ و الخَزّ، و علَّقتِ المعصْفَر، و دقَّتِ الطِّيبَ، و عظَّمت أمرها في عين أهلها ، و رفعت من قدرها عند الأَحْمَاء.

فكان هذا أمر غريب بالنسبة لزوجها **(زوج مريم الصناع)** ، فهو يعلم بضيق حال العيش، و عدم قدرته على تكلف مال زواج ابنته ،فشرحت له مريم الأمر بأنها منذ يوم ولادتها إلى أن زوجتها كانت ترفع من دقيق كل عجنة حفنة، على أنها كانت تخبز في كل يوم مرة ، فإذا إجتمع المَكُّوكْ باعتهُ"[1].

فالقارئ لقصة مريم و إبنتها يبدو له في الوهلة الأولى أن ما قامت به هو أشبه للتوفير من البخل، لكن لو نظر في مدة هذا الفعل طول مدة وجود إبنتها عندها لكشف بخل مريم في كل يوم لتصل لهذا، فهي كانت تبخل على نفسها وبيتها طول هذه المدة لتكون النتيجة إظهار لكرم ، فحتى تظهر كرمها حقيقة كان يجب أن تقوم بفعل البخل ليتحقق أمرها

[1] – ينظر: المصدر السابق، ص 64.

، و عليه نرى أن هناك ثنائية قامت بها مريم ألاّ وهي البخل والكرم التي زادت من إنسجام و تجانس معنى البخل في الكتاب.

- "أيضا **قصة معاذة العنبرية** ، التي كانت لها فلسفة الإقتصاد وعدم تضيع أي شيء من الأضحية لأن تضيع القليل يجر ورائه تضيع الكثير في نظرها،ولهذا يجب عليها عدم تضييع القليل ، فاستغلت جميع أعضاء الشاه من القرن الذي إستعلمه في تعليق الأشياء و المصران كآلة لضرب القطن و العظام التي تستعمل رغوتهم كزيت للقنديل و للإدام و العصيدة ، و الشهاب إستعملته كقربة للماء و الصوف كفراش و غيرها مما استغلته من الأعضاء و ربما تدبرها فيها جعلها مسرورة في النهاية لأنها نجحت بالإستفادة من لحم الأضحية و جميع أجزاءها ".[1]، و لكن بعد كل هذا إلا أن الجاحظ إتهمها بالبخل لأنها بالغت في تقتيرها و حرصها في الإستغلال ، فنفسيتها البخيلة هي من جعلتها تقوم بهذا إعتقادا أنها في منتهى التدبير و الاقتصاد، لكن إعتقادها هذا في نظر المجتمع في منتهى البخل و التقتير.

- إضافة إلى هذا نجد نموذج آخر في الكتاب و هو "قصة **ليلى الناعطية** صاحبة الغالية من الشيعة، فإنها مازلت ترقع قميصًا لها و تلبسه، حتى صار القميص الرقاع،

و ذهب القميص الأول، و رفت كساءها و لبسته، حتى صارت لا تلبس إلى الرفو،

[1]- ينظر: المصدر السابق، ص 68.

و ذهب جميع الكساء. فمن خلال هذا النموذج نلحظ حرصها الشديد على أداء فعل البخل الذي ألبسها الرفو"[1].

و عليه من خلال هذه النماذج الثلاثة يبرز لنا أن بخل المرأة كان من باب التوفير و الاقتصاد و التدبر في نظرها، فقد تشاكلت هذه النماذج فيما بينها لتزيد و تؤكد على معنى البخل في الكتاب، و يؤكد تشاكل و اشتراك المرأة و الرجل في انتهاجه سلوكا و أدبا و خلقا للحياة.

ثالثا: بخل الصبية:

قد لا يحتاج البخل إلى تجارب حياتية طويلة، أو إلى عمر كبير ليكون خيارا أخلاقيا وسلوكيا للبخيل، بل إن البخل قد يوجد في الصغار مع حداثة سنهم، فعنصر الوراثة فيه كبير،

قال أحمد بن رشيد: " كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبيٌّ له صغير يلعب بين يديه، فقلت له إما عابثا وإما مُمتحنا : أطعمنِى من خُبزكم، قال: لا تُريده هو مرّ ! فقلت : فأسقنى من مائكم ، قال : لا تريده هو مالح، قلت: هات من كذا و كذا ، قال : لاتريده ، هو كذا و كذا ! إلى أن عددت أصْنَافا كثيرة".[2]

فالمُلاحظ لكلام الصبي يدرك أن البخل جرى في طباعهم وساد جميع فئاتهم الاجتماعية وأصبح لديهم فطرة جبلوا عليها.

[1]– ينظر: المصدر السابق، ص 74.

[2] – المصدر نفسه ، ص 46–47.

رابعا: بخل الحيوانات:

لم تسلم الحيوانات من هذه الصفة و هذا الخلق، فمما تجلى في هذا نذكر: "**قصة ديكة مرو**" :قال ثمامَةُ: " لم أرَ الديك في بلدة قط إلا وهو لَاقِطُ ، يأخذ الحبَّة بمنقَاره، ثم يلفظُها قدام الدّجاجة إلا ديكَةَ مرو ، فإنّى رأيت ديكة مرْوَ تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب! قال : فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد ، و في جواهر الماء ، فمن ثمَّ عمَّ جميع حيوانهم"[1].

فالبخل كما قال عمَّ حتى حيواناتهم، ومنه نستنتج أنَّ البخل موجود في الناس و في الطبيعة و في الحيوانات، بل في الماء وفي الهواء، هذا ما يؤكد لنا تأصل البخل في طبعهم.

بعد تبيان تجليات بُنَى البخل التي وردت في الكتاب ، نستنتج أن هناك تماثل و تشابه كبير بينها، فكل واحدة منها رغم اختلاف سياقها و موضوعها إلا أنها كانت كلها تنحو منحى واحدا و تهدف لتحقيق هدف و غاية واحدة ألا و هي " فلسفة البخل"، و ربما هذا التماثل الكبير الذي جعلهم يتخذوها منهجا واحدا في حياتهم راجع إلى الطبيعة التي جبلوا و فطروا عليها حتى أصبح هذا الأخير (البخل) يسري في عروقهم، و عليه فهذا التشامل و التماثل و التشارك الذي وجد ليحقق هدفا واحدا بينها أحدث تشاكلا و انسجاما و اتساقا داخل الكتاب ككل ليؤكد و يوضح لنا معنى البخل الذي مس جميع فئات و نواحي و عناصر المجتمع و البيئة.

[1]– المصدر السابق ، ص46.

و في نفس الوقت رغم هذا التشاكل الذي حدث نتيجة التماثل بين هاته النماذج إلا أننا نلحظ أن هناك تباينا كبيرا بين ما كانت تدور حوله كل هذه النماذج لا من حيث استخدام أسلوب الحيل و التلاعب و لا من حيث الصفات و الأخلاق التي تحلو بها و الأفعال التي كانوا يقومون بها، فكلها تتعارض و **تتباين** و تتنافى مع المبادىء الدينية و الأخلاقية و العربية، فلبخيل لا يمكنه التعايش مع مجتمع تتأصل فيه مبادئ، وشمائل عريقة، من مروءة ، و كرم ، و سخاء.

ومن هنا نخلص إلى أن البخيل واحد من المجتمع، يتأثر و يؤثر فيه، ورغم هذا نجده يعيش و كأنه وحيدا بعقدته النفسية التي يحاول دائما عدم إظهارها حتى لا يكشف أمره، لأن هذا الشيء يتعارض مع ما تفرضه الحياة العربية من سمات الكرم و الضيافة، فهو بحكم طبيعة هذا المجتع و ما يحظي به الكريم في وسطه، يعيش حالة نفسية مضطربة، بين عاطفة الضيافة و حب البخل.

ثانيا: التشاكل السميولوجي:

السّمات السميولوجية:

نعني بالسمات السميولوجية تقسيم الكلسيمات السياقية إلى مجموعة من المقومات أو السمات النووية الجوهرية العرضية التي تتكون منها الصورة الدلالية أو السياقية ، كما كان يفعل رومان جاكبسون R.jacksonh مع الأصوات ، وذلك باستعمال الموجب والسالب ، كما يتضح لنا ذلك بجلاء في مثالنا هذا :"الرجل ينبح ".

"الرجل ": (حي (+) مذكر /+عاقل /+/بالغ/

"ينبح" :/ فعل /+/صوت/+/يسند إلى حيوان/–/عاقل/.

و هكذا فقد فككنا الصورتين أو الكلسيمين إلى مجموعة من السمات النووية أو المعلومات الجوهرية و العرضية . وبالتالي فهما يتشاركان في صفة للحياة ، ويختلفان في الكثير من الصفات المميزة، وخاصة العقل.[1]

و منه فالقراءة الجزئية التفصيلية للوحدات السردية و المسارات التصويرية مكنتنا فعلا من استنساخ **التشاكلات السيميولوجية** التي هي في الأصل آثار للمعنى في بُناه المركزية (الجوهرية) و الفرعية (المرحلية) و السياقية ، و يمكن استقطابها في المقومين المعرفيين[2]: البخل والسخاء لتكون ترسمتهما كالأتي :

[1] – فائزة زيتوني، بنية التشاكل و التضاد في نصوص الكرامات الصوفية الجزائرية، المرجع السابق، ص316.

[2] – المرجع نفسه، ص338.

مقوم البخل : يحيل إلى السيمات السيميولوجية الآتية:

- **رجل** :/مثقف/+/مذكر/+/عاقل/+/بالغ/+/حي/+/إنطوائي/+/معقد/+/بخيل /+/شحيح/+/حريص/+/قلق/+/منفرد/+/ناكر للجميل/+/عزة النفس/+/حيلي/+/حكيم/+/فصيح/+/ يحاجج و يقدم البراهين/.
- **إمرأة** : صاحبة إصلاح /+/أنثى/+/عاقلة/+/بالغة/+/حية/+/ذات اقتصاد/+/مدبرة/+/ذكية/+/حسن التصرف/+/حكيمة/.
- **صبي**:/طفل/+/مذكر/+/عاقل/+/حي/+/شحيح/+/بخيل بالفطرة/.
- **حيوان**:/حي/-/عاقل/+/ذو غريزة/+/عادة/+/شحيح/.

و عليه فانسجام وتجانس عناصر هذا الكتاب و تشاكل مقوماته السميولوجية أدى إلى تأكيد معنى البخل و تأصيله في جميع نواحي الحياة و فئاتها و خلق انسجام و تجانس داخل رسالة الجاحظ و وحد كل معانيها و كثفها لتؤكد دوما على هذه الظاهرة الاجتماعية اللافتة.

ثالثا: التشاكل الدلالي:

- السمات الدلالية:

نعنى بالسيمات الدلالية المقولات التصنيفية أو المقولات الفكرية و الكونية الخارجية التي تحدد مجموعة من السيمات السميولوجية أو النووية. و تحيل هذه السيمات المقولاتية التصنيفية على القيم الكونية و الفكرية و الذهنية الفلسفية الخارجية و الإيديولوجية النصية. ففي المثال السابق يمكن الحديث عن مقولتين :

/إنساني/+/طبيعي/+/جنس/..... ويمكن الحديث في أمثلة نصية أخرى عن الإقتصادي و الإجتماعي و النفسي والأخلاقي .... و غير ذلك ، من مقولات فكرية تصنيفية يستوجبها التحليل السيميائي للسمات النووية و السياقية.[1]

- التشاكلات الدلالية في الكتاب :

تتيح لنا التشاكلات الدلالية القراءة الموحدة لمقولات السرد في الكتاب كله باعتبارها تواتر وتكرار للمقولات الفكرية والكونية الخارجية، و التشاكل الدلالي أعم و أشمل من التشاكل السيميولوجي، إذ تنضوي تحته جميع التشاكلات السيميولوجية و السياقية، و هو ما يمنح النص تلكم القراءة الموحدة المنسجمة .

و تبعا لتواتر السمات النووية في البخلاء يمكن توصيف المقومات الدلالية في معنين مركزيين[2] هما : **البخل و السخاء :**

[1] – فائزة زيتوني، بنية التشاكل و التضاد في نصوص الكرامات الصوفية الجزائرية، المرجع السابق، ص316.

[2] – المرجع نفسه، ص339.

1. يحيل معنى البخل في التشاكل الدلالي /**نفسي**/ إلى دلالات : القلق، الأنانية، الانفرادية ، سوء الظن، الحرص، الحيلة ، التلاعب، البؤس، عدم الثقة، الحزن، الانكسار، الوساوس النفسية، نظرة تشاؤمية...

و يظهر ذلك من خلال المقولات النصية التالية: "أكلي وحدي هو الأصل"، "أكلي مع غيري زيادة في الأصل"، "كيف طمعت في طعامي"، "من أباح لك مالي، ختمت على سدّ عظيم"، "لم يعرض عليه الطعام و نحن نأكل"، "كان من أبخل خلق الله".

- بينما يحيل معنى السخاء في التشاكل الدلالي /**نفسي** / إلى الدلالات التالية وفق ما جاء على لسان بخلاء الجاحظ طبعاً: ضعف النفس، وفسادها، عدم تحمل المشقة، الخضوع للنزوات، الافتقار بعد الغنى، الاحتياج للغير، و شظف العيش.

2. و يحيل معنى البخل في التشاكل الدلالي /**جسدي**/ إلى : الحلق الجهير، اللحية الوافرة، اهتراء اللباس، تمزق الخفاف، أشعث، أغبر، حفظ المال، التحمل و الصبر. من مثل المقولات النصية التالية: "المخصوفة أبقى و أنفى للكبر"، "أشبه للنسك"،" أن الترقيع من الحزم"، "يمشون على أقدامهم ثلاث أشهر، لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر مخافة أن تتجرد أو تنقب،"ما أقبح السرف بالعاقل و أسمح الجهل بالحكيم".

- و يحيل معنى السخاء في التشاكل الدلالي /**جسدي** / إلى الترف الفاني، إضاعة الكثير من المال على شهوات الجسد الفاني ومثال هذا: "ما ظننت أن إهمال النّفس و سوء السياسة بلغ بك ما أرى".

3. كما يحيل معنى البخل في التشاكل الدلالي /**أخلاقي**/ إلى دلالات :الشك ، التسرع، الغضب، كبت للشهوات، سوء الظن، القلق ، الحيلة ، التلاعب ، الإنغلاق ، العبوس، كثرة الكلام، الغش، كثرة التبريرات، فصاحة الرد و الحكمة فيه، ومن أمثلة: "ويلك لو ظننت أنك أحمق ما رددت عليك السلام"، "فيكون كلام بكلام"، "أما كلام بفعال، و قول بأكل فهذا ليس من الإنصاف"، "فلما قدم إلى المروزي تنكر له"، "ادعى عدم معرفته"، "لو خرجت من جلدك لن أعرفك"، "فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل".

بينما معنى السخاء في التشاكل الدلالي /**أخلاقي**/ فيحيل إلى دلالات : الإسراف، الجهل بعواقب الأمور، سوء السياسة و التقدير، التبذير، فساد الأخلاق، الترف، ذهاب الدين.

4. بينما يحيل معنى البخل في التشاكل الدلالي / **معرفي** / إلى دلالات : حكيم، مثقف، واعٍ بما يفعل، فطن، مدرك، ذكي، حافظ، حسن التصرف، يحسب حسابا لكل تصرفو فعل أو قول مثل: " من عقلائهم و فهمائهم"، "كانت ذوات الإقتصاد""، و صاحبة إصلاح"،" لم أرى وضع الأمور مواضعها"، "و في توفيتها غاية حقوقها" .

بينما يحيل معنى السخاء في التشاكل الدلالي / **معرفي** / إلى دلالات : يحيل إلى الجهل و عدم تقدير الأمور، عدم معرفة أبجديات الحياة السلمية، الخسران، الافتقار بعد الغنى، سوء التحطيط، و من نماذج هذا:"أن الإنفاق في الهوى حجاب دون الحقوق"، و بعد المرور و التطرق لهذه الإزدواجية بين البخل والسخاء و رصد الدلالات التي تنضوي

تحتها، و التي مكنتنا من القراءة الموحدة المنسجمة و المتجانسة لبنية الكتاب ، نذهب مباشرة إلى رصد أقطاب المربع السيميائي.

رابعا: المربع السيميائي:

بعد محاصرة البنية العميقة و دراسة السيمات النووية السميولوجية و السيمات الدلالية ، نقف الآن على تخوم البنية المنطقية التأسيسة للنص من خلال ما يسمى بالمربع السيميائي أو مربع الصدق، على أساس العلاقات الأصولية :(تضاد – تناقض – تضمُن)، كما يمكن تصور الدلالة ككيان متحرك ينتج عنه توليد المعاني و تحريك المربع السيميائي.

فالتناقض كعلاقة شكلية أو منطقية تصلح لبناء أزواج دلالية متناقضة العناصر يصبح عمليه قصصية أو دلالية ، على مستوى التركيب ، يترتب عنها نفي عنصر و إثبات أو إقرار عنصر آخر هو نقيض للعنصر المرفوض أو المنفي . و إذا ما طبقت هذه العملية على مربع علامي مشحون بالقيم ينتج عنها حتما نفي دلالات وإبراز أخرى بصيغة الإيجاب والجزم .[1] و عليه سيكون الشكل النهائي للمربع السيميائي في البخلاء

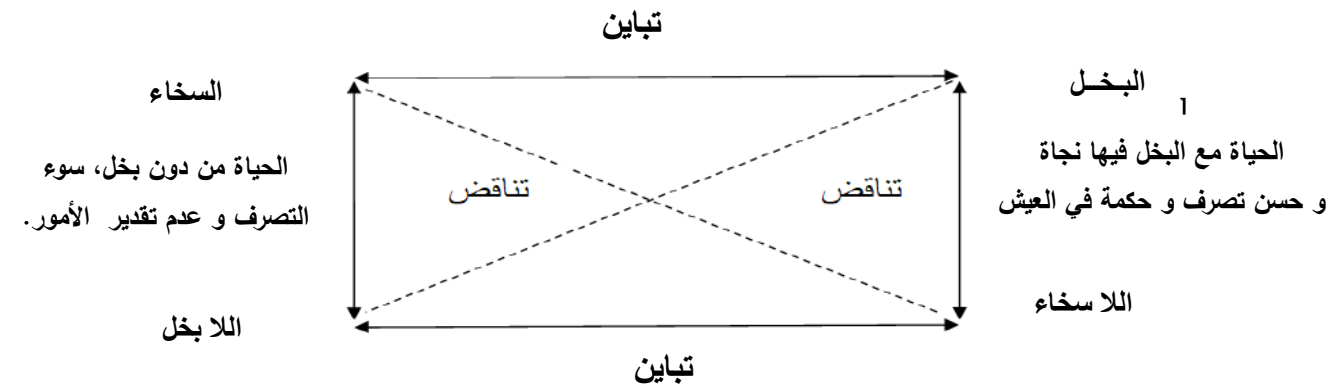

[1] – فائزة زيتوني، بنية التشاكل و التضاد في نصوص الكرامات الصوفية الجزائرية، المرجع السابق، ص342.

لم يكتف بخلاء الجاحظ بالدفاع عن البخل و مدحه و استحسانه سبيلا للعيش و خيارا مناسبا للحياة السوية، بل تعدو ذلك إلى ذم الكرم و تقبيح البذل و العطاء و مباينة السخاء و التنفير منه و من عواقبه الوخيمة على المال و النفس و البدن.

و الملاحظة الثانية أنه من خلال النماذج المدروسة غلب البخل في مجال الطعام و الأكل على بقية مظاهر البخل و أشكال الشح الأخرى، و هو ما يفسر بشدة الفقر و حجم الفاقة التي كان يعيشها المجتمع العباسي حينها ، إذ كان الحصول على قوت اليوم هو ما يؤرق كاهل الفرد و ينغص عيشه.

الخـاتـمـة

و في الختام أحمد الله سبحانه و تعالى الذي أعانني و وفقني على إتمام هذه الدراسة المتواضعة الموسومة بـ " **بنية التشاكل و التباين في كتاب البخلاء للجاحظ** "، و التي توصلت من خلالها إلى جملة من النتائج أهمها:

- أن التشاكل و التباين أداة إجرائية ساهمت في تعميق الممارسة النقدية السيميائية، و كآداة إجرائية ساعدتنا في الإحاطة ببعض الجوانب الجمالية الفنية و الكشف عن مضمون الرسالة الإبلاغية المقصودة لكتاب البخلاء للجاحظ.
- كما كشفت آلية التشاكل و التباين عن كيفية نسج النص و استخراج كنوزه و مدى تعالق مفرداته و حقله الدلالي.
- أَنَّ للتشاكل و التباين مرجعية تراثية تجلت لدى العديد من النقاد القدامى من دون الوقوف الدقيق على المفهوم الجديد لهما و الذي جاءت به السيميائيات الحديثة.
- استطاعت هذه الآلية أن تكشف عن مدى توحد و تشاكل بنى البخل داخل الكتاب و تعمق معناه و أساسياته و أطرافه و بواعثه و بيئته...
- اعتمدت معظم قصص البخلاء على ألفاظ و عبارات كلها تصب في معجم دلالي واحد (معجم البخل).
- أن الجاحظ يغوص في أعماق شخصية البخيل و يتفاعل معها إلى درجة أنّه ساق أقاصيصه عن البخل و البخلاء و الإدخار و النفقة و النفرة من الإسراف و التبذير.

- أن البخل شمل جميع طوائف المجتمع ، صغارا، كبارا، نساء، رجالا، و حتى الحيوانات لأن مذهب البخل تأصل فيهم.
- أن بخلاء الجاحظ لم يكتفوا بمدح البخل، بل تعدوه إلى ذم الكرم و جعلوه إسرافا و تبذيرا.
- من خلال النماذج المدروسة غلب البخل في مجال الطعام و الأكل على بقية مظاهر البخل و أشكال الشح الأخرى.

و في الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في دراستي هذه و أن يستفيد منها كل باحث بعدي و لو بالقليل، فإن أصبت فبتوفيق من الله، و إن أخطأت فمن نفسي، و "**الله**" من وراء القصد.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

- **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع**

I- المصادر:

1-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء، ضبط و شرح و تصحيح أحمد العوامري بك و على الجادم بك، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ج 1.

II- المراجع:

1-إبراهيم أنيس و آخرون، المعجم الوسيط، ج1، ط2.

2-إبن فارس ، مقاييس اللغة، تحقيق و ضبط عبد السلام محمد هارون، المجلد 3، دار الجبل، بيروت.

3-أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1.

4-أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، دار الثقافة و العالم، الشارقة، دبي.

5-باتريك شارودو- دومنيك مينغنو، معجم تحليل الخطاب، ت: عبد القادر المهيري/حمادي صمود ، دار سيناترا،المركز الوطني للترجمة تونس، 2008.

6-جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل ابراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،**ج 11.**

7-جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل ابراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،**ج 13.**

8- جميل حمداوي، السيميولوجيا بين النظرية و التطبيق، مؤسسة الورق للنشر و التوزيع، ط 1، 2011.

9-حسن السندوبي، آداب الجاحظ، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1350هـ/1931م.

10-خليل الجر و آخرون، لاروس المعجم العربي الحديث، مكتبة لاروس، 18 شارع مونيار ناس، باريس.
11-سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، ط1، دار الكتب الوطنية، هيئة الثقافة و التراث، أبوظبي- الإمارات العربية المتحدة، 2010.
12-عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية بوهران، ط1: 1993/7، ص97.
13-عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي، للخطاب الشعري " تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل، إبنة الحلبي "، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- 2005م.
14-عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 م.
15-الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ترجمة أبو الوفاء نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ط2، ص 1032.
16-محمد القاضي، معجم السرديات، محمد علي للنشر، تونس، ط 1، 2010.
17-محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، ط 4، الدار البيضاء، المغرب، 2005 م.

III- الأطروحات و المجلات العلمية:

III-1-الأطروحات:

1-فائزة زيتوني، بنية التشاكل و التضاد في نصوص الكرامات الصوفية الجزائية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغة و الأدب، تخصيص أدب جزائري قديم،

جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلية الآداب و اللغات، قسم اللغة و الأدب العربي، 2018/2017.

III-2- المجلات العلمية:

1. صالح لحلوحي، التشاكل و التباين في شعر مصطفى الغمازي، مجلة الأثر، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد17، جانفي 2013م.

2. عبد الكريم الفزني، المضحك في كتاب البخلاء، الحوار المتمدن، محور: الأدب و الفن، العدد 2997-2010/06/05.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمـــــة	أ .. د
مدخل.: الجاحظ و كتاب البخلاء	6
الفصل الأول: مفهوم التشاكل و التباين	11
أولا: مفهوم التشاكل	11
1- لـــغـــة	11
2-إصطلاحا	12
أ- مصطلح التشاكل في البلاغة العربية القديمة	12
ب- مصطلح التشاكل عند الغرب	13
- تصور "غريماس" (A.J.Greimas)	13
- باتريك شارودو/دومنيك منغنو	14
جـ- مصطلح التشاكل عند العرب	14
- محمد مفتاح	15
- أنور المرتجي	16
- محمد القاضي	16
ثانيا: مفهوم التباين :	16
1- لـــغـــة	16
2-إصطلاحا	17
أ-عبد الملك مرتاض	17
ب- محمد مفتاح	19
الفصل الثاني: بنى التشاكل و التباين في كتاب البخلاء للجاحظ	22
أولا: تشاكل و تباين بنى البخل	22
1-بخل الرجال	23
2-بخل النساء	43
3-بخل الصبية	45

4-بخل الحيوانات	46
ثانيا: التشاكل السميولوجي	48
ثالثا: التشاكل الدلالي	50
رابعا: المربع السيميائي	53
خاتـــمة	56
قائمة المصادر و المراجع	59
فهرس الموضوعات	62
الملخص	65
ملحق	68

الملخص

ملخــص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة بنى التشاكل و التباين في النصوص السردية لكتاب البخلاء من أجل الكشف عن البنى المركزية المهيمنة و التي تكرس لمظاهر البخل و أشكاله و طوائفه و بيئاته... و من شأن مثل هذه الدراسة سد فراغات الفهم و خلق الوحدة و التجانس داخل محتويات الكتاب

الكلمات المفتاح: الجاحظ، البخلاء، التشاكل، التباين، بنية .

Résumé :

Cette recherche vise à étudier la structure de la '' **ISOTOPIE et ALLOTOPIE**'' dans les textes narratifs du livre **d'Aljahid ALBOKHALA** afin de découvrir les structures centrales dominantes consacrées aux manifestations de l'avarice, des formes, des dénominations et des environnements ... Une telle étude comblerait les lacunes de la compréhension et créerait l'unité et l'homogénéité au sein de Contenu du livre

ملحق

التعريف بالجاحظ و كتابه البخلاء:

أولا: التعريف بالجاحظ: "هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، ولد بالبصرة في سنة (159هـ- 755م) في قول بعض المؤرخين، و نشا بها مُنصبّا على الدرس و طلب العلم في صباه، حتى بلغ شأوا بعيدا في كثير من العلوم و الفنون، و في سنة 204هـ رحل إلى بغداد للإقامة بها، و كانت في ذلك العهد زاهية زاهرة بمجالس العلم و الأدب، مائجة بالشعراء و الأدباء و المتكلمين، فأقبل يعلم الطلاب و يناظر العلماء و ذاع اسمه و طار ذكره ، فسعى إليه المتعلمون من كل حدب و صوب، و تزاحمت على بابه صلات الخلفاء و الوزراء."[1]

- **حياته:** وجد الجاحظ نفسه يتيما بعد فقدان والده، فكان لابد عليه أن يصبح معيلا لعائلته بكل ما تستوجبه متطلبات الحياة، و هذا لم يمنعه من تلقي العلم من مبادئه الأولى بين الكتاتيب و دكاكين الوراقين، فكان لا يترك أي كتاب يقع بين يديه إلا و استوفاه كاملا ، و هذه أولى لبنات مجده الأدبي الذي بناه و وصل إليه فيما بعد.

- **أشهر مؤلفاته:**

له كتب كثيرة في شتى العلوم و الفنون ومناحي الحياة المختلفة من أشهرها:

[1]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء، ضبط و شرح و تصحيح أحمد العوامري بك و على الجادم بك، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ج 1، 1422هـ-2001م، ص 13.

- " كتاب "**الحيوان**": كتبه لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير فأجازه عليه، و هو كتاب علم و أدب، طبع بمصر في سنة 1907 م.
- كتاب "**البيان و التبين**": قدمه إلى القاضي أحمد بن أبي دواد.
- كتاب "**البخلاء**": و هو كتاب أدب و علم و فكاهة.
- كتاب "**النفاجين**": و النفج : الفخر الكاذب و الإزدهاء الباطل."[1]

- وفاتـــــه:

عانى الجاحظ من مرض الفالج ، و ما زال في علته هذه إلى أن وقعت عليه مجلدات العلم فقضت عليه رحمه الله ، و ذلك في نهاية 255 هـ/ 868 م.[2]

ثانيا: التعريف بكتاب البخلاء و قيمته:

يعتبر كتاب "**البخلاء**" من أنفس الكتب التي تكلمت عن البخل و البخلاء و كان مميزا حتى بين ما كتبه أدباء عصره ، طبعت فيه روحه الخفيفة و المرحة التي" تهز الأرواح، و تجذب النفوس، تجلى فيه أسلوبه الفياض و بيانه الجزل الرصين، و قدرته النادرة على صياغة النادرة في أوضح بيان و أدق تعبير، و قد أطلعنا على أسرار الأسر و دخائل المنازل، و أسمعنا حديث القول بشؤونهم الخاصة و العامة و كشف لنا من كثير من عاداتهم و صفاتهم و أحوالهم"[3].

1- الجاحظ، المصدر السابق، ص 13.

2- حسن السندوبي، آداب الجاحظ، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1350هـ/1931م، ص 194.

3- المصدر السابق، ص 13-14.

فهو أشهر الكتب التي ألفها الجاحظ، حيث عرض لنا فيه شخصيات عاشرها في بيئته العباسية وهم (البخلاء)، فصور مذهبهم و فلسفتهم و نفسياتهم و أحوالهم و طباعهم و سلوكياتهم و أهوائهم و ميولهم في تبنيهم لصفة البخل المنبوذة في المجتمع، فعالج كل هذا بطرحه لقصص مختلفة و متنوعة توحي بما كانوا عليه، وصاغها بأسلوب هزلي سلس ووصف بارع يجعل المتصفح لا يملّ من قراءتها.

لاقى كتاب البخلاء رواجا و ترحيبا كبيرا بين الناس وذلك لأهميته، فطبع مرات عديدة منها:" تحقيق محمد مسعود في عام 1905 م و صدر عن مطبعة الجمهورية بالقاهرة في العام ذاته، ثم عني بضبطه و شرحه و تصحيحه أحمد العوامري و علي الجارم في طبعة صدرت عن وزارة المعارف بالقاهرة عام 1938 م، و تتالت بعد ذلك تحقيقات و شروحات كثيرة صدرت في طبعات مختلفة منها: طبعة طه الحاجزي، دار المعارف القاهرة 1958 م، و طبعة فوزي عطوي الشركة اللبنانية عام 1969 م".[1]

الباعث على تأليف هذا الكتاب :

كان لتأليف الجاحظ لكتابه "**البخلاء**" عدة دوافع، نذكر منها:

أولا: "يغلب على الظن أن يكون الجاحظ قد كتب كتاب البخلاء و هو في سن الشباب و إبان الفتوة لأن هذا السن الغالب سن العبث و السخرية و التندر و الدعابة و التفكه بعيوب الناس."[2]

[1]– عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 م، ص25.

[2]– الجاحظ، المصدر السابق، ص 14.

ثانيا: يقول البعض أنه ألفه لواحد من ثلاثة هم :"محمد بن عبد الملك الزيات، وزير المعتصم و الواثق، لما كان بينه و بين الجاحظ من وثيق الصلة، و الفتح بن خاقان وزير المتوكل، لما أثر عن الفتح من الإعجاب بكتب الجاحظ، و ابن المدبر، و قد كان للجاحظ صديقا حميا".[1]

ثالثا: و من أهم البواعث التي أدت بالجاحظ للتطرق لموضوع البخل هو الرد على شعوبية الذين كانوا يردون على فخر العرب بالجود و الكرم و يقولون أنه مجرد كلام و ليس منه من الأفعال الواقعية و يستدلون بأمثلة كثيرة عن معيشتهم السيئة و على مطاعمهم المتدنية و أكلهم الرديء و غير ذلك.[2]

و من خلال تلك الدوافع نستنتج أن تأليف الجاحظ لكتابه البخلاء كان بمثابة الرد الصارم و الوقوف الحازم في وجه الشعوبيين و غيرهم من الأعاجم المشهورين ببخلهم و لاسيما منهم أهل مرو و خراسان ، و في هذا إعلاء للذات العربية ، التي تمجد الكرم و ترفع راية البذل و السخاء.

---

[1]- المصدر السابق، ص15.

2- ينظر: سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، ط1، دار الكتب الوطنية،هيئة الثقافة و التراث، أبوظبي- الإمارات العربية المتحدة، 2010 ، ص 10.